التصوير الفني في قصة يوسف – عليه السلام –

د. سناني سناني
جامعة بسكرة – الجزائر

توطئة

لقد عرضت القصة القرآنية عموما، بصورة لافتة للانتباه، حيث برزت فيها ظاهرة التصوير[1] الفني بشكل جلي، فكان التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها فتستحيل القصة حادثا يقع ومشهدا يجلي، لا قصة تروى ولا حادثا قد مضى[2] وقد كان التصوير يمثل أبرز الخصائص الفنية في القصة، إذ ((إن القصة القرآنية تستحيل بواسطة التصوير حادثا شاخصا يقع، ومشهدا حيا يجلي، وحركة فنية تقوم بها أبطال القصة وشخوصها))[3].

وإذا كان ذلك هو شأن التصوير في القصة القرآنية عموما، فإنه في قصة يوسف ـــ عليه السلام ـــ قد برز أيما بروز، في عرض أحداثها وإظهار مشاهدها، فقد كانت أحداث القصة مقتطعة من واقع الناس المشهود، وقد كانت أحداثا مثيرة، وابتدأت

---

[1]– قال ابن منظور (تصورت الشيء: توهمت صورته فتصور لي): ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، 1988م، ج 3، ص 492.

[2]– ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 8، 1978، ص 190.

[3]– صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الشهاب، باتنة، ص 233.

برؤية يوسف في المنام، وانتهت بتحققها في الواقع. وكانت هذه الأحداث تجري بين أرض الشام وأرض مصر. واللافت في عرض هذه القصة، هو التصوير المبدع، الذي ينقل القارئ والمتتبع لها، إلى اندماج فيها، وكأنه يعيش مشـــاهدها الآن ويتحسس مشاعر أشخاصها في التو ... والتعبير القرآني يجعل الصورة ماثلة بجملتها في الفكر[1] وقد كان لهذا التصوير ألوان عدة: (لون يبدو في قوة العرض والإحياء، ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات، ولون يبدو في رسم الشخصيات، وليست هذه الألوان المفضلة، ولكن أحدها في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين، فيسمى باسمه)[2].

إن الحديث عن التصوير الفني (بألوانه)، في كل مشاهد قصة يوسف – عليه السلام – يحتاج إلى رسالة أكاديمية كاملة ـــ علّها تفي بالموضوع ـــ، ولذلك سنكتفي بعدة مشاهد من القصة، تبرز فيها بوضوح ظاهرة التصوير بلونيها؛ الأول: (قوة العرض والإحياء) والثاني: (تخييل العواطف والانفعالات). والمشاهد التي سنختارها، يجتمع فيها اللونان بالضرورة. ولكننا سنركز على ذكر لون دون آخر، وهذا يرجع إلى طبيعة المشهد.

لقد كان التصوير بارزا أشد البروز في كل مشاهد قصة يوسف ـــ عليه السلام ـــ. فما يكاد القارئ يقرأ هذه القصة بكل مشاهدها (حتى ترتسم أمام عينيه ... معروضة عرضا فنيا متناسقا قويا ويذهب بخياله مع هذه المشاهد مستمتعا متخيلا متأملا متذوقا. وأبطال القصة تدب فيهم الحياة ويدبون أمام القارئ ويتحركون، وتظهر

---

[1]– ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 241.

[2]– سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 190.

علامات الحياة على ملامحهم وحركاتهم وتعابيرهم ونفوسهم ويتحركون من خلال النصوص جيئة وذهابا: ينشطون، ويفرحون ويتأملون ... ويتحدثون ويجادلون وكأنهم أمام القارئ على خشبة المسرح)[1]

فالعرض في مشاهد القصة كان قويا، رسم لنا الشخصيات على مسرح الأحداث بصورة بارعة وكأن الحياة تدب فيها ... لقد رأينا يوسف الصغير يروي رؤياه على أبيه ،و رأينا إخوته يخططون لمؤامرتهم، وينفذونها ،و رأينا السيارة تأتي وتنقل يوسف من أرض إلى ارض ورأينا امرأة العزيز تراود يوسف وتستعمل شتى الوسائل والحيّل، ورأينا يوسف يجالس صاحبيه في السجن ويحكي لهم، ورأينا مساعد الملك غدوا ورواحا بين قصره وسجن يوسف، ورأينا إخوة يوسف يتنقلون ذهابا وإيابا بين مصر والشام، ورأيناهم رأي العين يدخلون مصر لآخر مرة مع أهلهم أجمعـــين، وقد رأيناهم جميعا يحققون رؤيا يوسف بسجودهم له... فكل هذه المشاهد لم تكن تعرض عرضا ميتا على سبيل الرواية، وإنما كانت تعرض عرضا قويا تدب فيه الحياة ،حتى ليشعر القارئ والســـــامع وكأن المشاهد تعرض أمامه عرضا سينمائيا حيا، و((يظن أن المشهد حاضر يحس ويرى ...))[2].

ونضرب أمثلة على ذلك من المشاهد التالية:

---

[1]– سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 190.

[2]– صالح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق، ص 233.

1: مشهد السيارة

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ...)[1] .

لقد علمنا من المشاهد السابقة لهذا المشهد، أن يوسف ألقي به إخوته في البئر، وعلمنا أيضا من خلال كلام أحد إخوته، أنه بعد إلقائه في البئر، يمكن أن تأتي سيارة فتلتقطه[2] **(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ...)**[3]

فقد كان القارئ مهيأ لمجئ هذه السيارة، بل وينتظر مجيئها. وهذا نتيجة ما يسميه نقاد القصة: (بالسابقة)، فـــ: ((السابقة عملية سردية تتمثل في إيراد حدث آت أو الإشارة إليه مسبقا:هذه العملية تسمى في النقد التقليدي بسبق الأحداث (anticipation))[4].

وتبرز هنا روعة التصوير، بقوة العرض والإحياء... لقد ألقي يوسف الصغير في غيابة الجب، وكان(في حفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة وقيل كان ماؤه مالحا ...)[5] وكان المتتبع للقصة، يتألم من هذا الوضع المأسوي الذي أصبح فيه الغلام

---

[1]– سورة يوسف، الآية: 19.

[2]– الالتقاط تناول الشيء من الطريق، ومنه اللقطة واللقيطة، ذكره: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 6، ص 103.

[3]– سورة يوسف، الآية: 10.

[4]– سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، ص 80.

[5]– محمود الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة، بيروت، ج 2، ص 247.

البريء، وإذا بالسيارة تطلع من هناك ... (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ). (وَجَاءَتْ) أي إلى ((ذلك المكان الذي كانوا فيه))[1]. (سَيَّارَةٌ) أي ((قافلة. وسميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة))[2]. ويترك السياق المجال لخيال المتلقي، يتصور ما في هذه القافلة من إبل وأشخاص ومتاع ... ويسلط أضواء التصوير على من سيقوم بدور إنقاذ يوسف وإخراجه من غيابة الجب.

(فأرسلوا واردهم)يصوّر لنا السياق أن هذه القافلة قد انتدبت شخصا معينا وهو الوارد ((الذي يرد الماء ليستسقي للقوم))[3]. ثم أرسلت به إلى البئر، وفي هذه اللفظة (أرسلوا) تصوير دقيق نتحسس من خلاله حركة الوارد، وهو يتقدم نحو البئر بدلوه، وبخطواته المعتادة، ويصور لنا السياق أيضا حركة إدلائه بالدلو داخل البئر (فأدلى دلوه) ((أي أرسله ودلاّه في ذلك الجب))[4]. وهو تصوير دقيق نكاد نلتمسه أيضا. ولكن الرجل لم يكن يدري ما يخفي له البئر بدل المال ؟ – على عكس المتلقي – ((ويحذف السياق حركة يوسف في التعلق بالدلو احتفاظا بالمفاجأة القصصية...))[5]. ويترك ذلك لخيال المتلقي لأنه من مقتضيات تمام القصة.

ويصور لنا السياق حالة الوارد، وهو يجذب دلوه من داخل الجب مثقلا ... يظن على عادته أنه ماء... فإذا به يفاجأ مفاجأة كبرى، صارخا (يا بشرى هذا

---

[1]– محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، 1993م، ج 12، ص 270.

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، 1982، ط 10، ج 4، ص 1976.

[3]– محمود الزمخشري، مصدر سابق، ج 2، ص 247.

[4]– محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ج 12، ص 270.

[5]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 1976.

غلام)...و بهذا التصوير الدقيق، يجد القارئ نفسه يشارك الوارد في دهشته من حيث لا يدري...

وهكذا يعرض هذا المشهد عرضا قويا تدب فيه الحياة، ويحسّ المتلقي وكأنه يشاهده الآن، بل وكأنه يشاركه الآن، مع قصر كلماته ... وهذا من عظمة القرآن وإعجازه .

2: مشهد النسوة

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31))[1]

لقد صور لنا السياق في المشهد السابق، امرأة العزيز تراود فتاها، وتدعوه إلى نفسها بصورة مكشوفة، وصور لنا انكشاف أمرها أمام زوجها، والذي هو من أهلها. ثم ينتقل بنا إلى مشهد آخر، فيصوره تصويرا دقيقا، يبرز فيه قوة العرض والإحياء، وتخييل المشاعر والأحاسيس أيضا ...

إن حادث المراودة لن ينته عند قصر العزيز، بل انتشر خبره إلى القصور المجاورة ... فان: ((للقصور جدرانا وفيها خدم وحشم. وما يجري في القصور لا يمكن أن يظل مستورا وبخاصة في الوسط الأرستقراطي، الذي ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما

---

[1] – سورة يوسف، الآيتين: 30، 31.

يجري في محيطهن وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن في المجالس والسهرات والزيارات))[1]

ويترك لنا السياق، تصور عملية انتشار هذه الفضيحة الأخلاقية، بهذه الجملة المختصرة: (**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا...**)[2] والنسوة ((جمع قلة للمرأة... ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن... وكأن من الطبيعي أن يعرفن نبأها معه ويكون حديثهن الشاغل في مجالسهن الخاصة وكل خلاصته الوجيزة المؤدية لمرادهن منه ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن: (**امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ**) ...))[3] ومن دقائق التصوير في قولهن (تراود فتاها).أن امرأة العزيز ((... بعد أن افتضح أمرها وعرف به سيدها وزوجها، وعاملها بالحلم، وأمرها باستغفار ربها، لا تزال مصرّة على ذنبها، مستمرة على مراودتها، وهو ما أفاده قولهن (تراود) وهو الفعل المضارع الدال على الاستمرار))[4]

ومن لفتات التصوير أيضا، قولهن (قد شغفها حبا) أي قد (خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى فؤادها. والشغاف حجاب القلب...))[5] فحب يوسف قد وصل

---

[1]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 1983.

[2]– سورة يوسف، الآية: 30.

[3]– سورة يوسف، الآية: 30.

[4]– محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ج 12، ص 290، 291.

[5]– محمود الزمخشري، المرجع السابق، ج 2، ص 252.

إلى ((شفاف قلبها أي غلافه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك عليها أمرها))[1] . والتصق حبه بقلبها التصاق الحجاب به.

فإذا كان هذا هو حال النسوة، بعد سماعهن الخبر. فكيف صور القرآن موقف امرأة العزيز من قولهن: (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكينا ...)[2] لقد انتشر الخبر في المدينة انتشار الضياء، وسمعت المعنية بالأمر ذلك، وعلمت بالمصدر الذي يلوك الفضيحة، ويوجه لها اللوم .إنهن نسوة في المدينة ... ولرد كيدهن، أي غيبتهن لها ((وسميت الغيبة مكرا لاشتراكهما في الإخفاء))[3] كشف السياق لنا ((عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن ... لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ...))[4] و((... دعتهن إلى الطعام في دارها، ومكرت بهن كما مكرن بها ...))[5].

ويصور لنا السياق بدقة حيثيات هذا المجلس الذي أعدته لهن. فقد ((هيأت لهن ما يتكئن عليه إذا جلسن، من الكراسي والأرائك، وهو المعتاد في دور الكبراء ... وكان ذلك في حجرة مائدة الطعام، وأعطت كل واحدة منهن سكينا ليقطّعن به ما

---

[1]– محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ج 12، ص 291.

[2]– سورة يوسف، الآية: 31.

[3]– محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 3، ص 21.

[4]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 1984.

[5]– محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ج 12، ص 292.

يأكلن به من لحم أو فاكهة ...))[1] ((ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة أهل الشرق في ذلك الزمان **وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا**))[2] ومن اللفتات التي نكتشفها في هذا المشهد، أن التصوير سلط الأضواء على السكاكين التي أعطيت للنسوة، ولم يسلطها على الطعام الذي قدم لهن، على غير العادة.

فلم يعرفنا السياق بنوعية الطعام الذي قدم لهن، أهو فاكهة، أم لحم، أم غير ذلك ؟ ولم يذكره حتى ؟ . وكان من المعتاد أن يذكر الطعام، دون السكاكين، لأن هذه الأخيرة وسيلة لتسهيل أكل الطعام ليس إلا . والسبب في ذلك، أن تسليط الضوء على الطعام لا يخدم الغرض الذي أرادت امرأة العزيز أن تصل إليه بقدر ما يخدمه تسليط الضوء على السكاكين. فـ ((المراد من إعطائها لكل واحدة سكينا ما سيقع منهن من تقطيع أيديهن))[3] ((قيل إنها قدمت إليهن فاكهة وأعطتهن سكينا ليقطعن الفاكهة ... فلما رأينه دهشن، وقطعن أيديهن))[4]

وهو ما كان بالفعل، حيث أمرت فتاها **(وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا ...))**[5]

---

[1]– محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ج 12، ص 292.

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 1984.

[3]– محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المرجع السابق، ج 3، ص 21.

[4]– الطوسي، المصدر السابق، ج 6، ص 110.

[5]– سورة يوسف، الآية: 31.

ولنتأمل هذا المشهد المفعم بالحركة والحياة ... النسوة في مجلس امرأة العزيز ... في حالة استرخاء، وتجاذب لأطراف الحديث، والطعام موضوع أمامهن، والسكاكين في أيديهن يقشرن بها الفاكهة ويقطعن بها اللحم. وبينما هن غارقات في سمرهن إذا بامرأة العزيز تتحين الفرصة وتأمر يوسف بالخروج إلى مجلسهن ... ونتصور حركة يوسف بالخروج على النسوة، وهن في تلك الحال من الانبساط . ((فعلم من هذا أنها تعمدت أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه عالمة بما يكون لهذه المفاجأة من تأثير الدهشة))[1]

وهنا تكون المفاجأة الكبرى ... إن النسوة المنشغلات بسمرهن، تتحول أبصارهن في لحظة واحدة نحو يوسف، فإذا بهنّ، بهتن لطلعته، ودهشن، ولا يتوقف ذلك الاندهاش عند أفكارهن بل ينعكس على جوارحهن، الواحدة تلو الأخرى، فبدل تقطيع الطعام، قطعن أيديهن ؟ وهذا من شدة تأثير المفاجأة، حيث ((جرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجأة))[2] ويكون تبريرهن لذلك الموقف اللا إرادي، في صيحة جماعية: **(قلن حاش لله ما هذا بشـــرا إن هذا إلا ملـــك كريم)**[3] ((وتستعمل حاشا لتبرئة الاسم الذي بعدها عند ذكر سوء في غيره أو فيه ...))[4] ((... ما هذا بشرا حال

---

[1]- محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ج 12، ص 253.

[2]- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 1984، ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1990م، ط 2، ج 1، ص 205، الجلالين، تفسير الجلالين، دار الجيل، بيروت، 1995م، ط 2، ص 239.

[3]- سورة يوسف، الآية: 31.

[4]- أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، دار صادر، بيروت، 1988م، ط 1، ج 5، ص 202.

تعظيم له وتعجب مما يشاهد منه من حسن خلق، أو خلق. وكان الغرض أنه ملك بطريق الكناية ...))[1]

فالتصوير في هذا المشهد كان قويا، مفعما بالحركة والحياة، حتى انه يجعل المتلقي، وكأنه جزء من مجلس النسوة، يتابع حركات أشخاصه عن قرب، ويلاحظ السكاكين تقطع أيدي النسوة والدم يسيل منها، وهن في غفلة عن ذلك، لشدة ما أصابهن من الإعجاب بطلعة يوسف. وصوّر لنا السياق جمال يوسف الباهر الذي فعل فعلته في النسوة فأكبرنه، أي: ((أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق، قيل كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل ليلة البدر على نجوم السماء))[2]

وبذلك تكون ريشة التصوير الفني، قد فعلت فعلها، في هذا المشهد، فأخرجته من دائرة الرواية الجامدة، الى دائرة التجسيد الحي بقوة عرضه، وبتخييل أحاسيسه ومشاعره أيضا.

3: مشهد أخذ يوسف لشقيقه

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ

---

[1]– الخطيب القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت، 1993م، ط3، ج3، ص 114.

[2]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 253.

كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ...)[1]

هذا المشهد من مشاهد القصة، غني بتصوير حركات الأشخاص على مسرح الأحداث ويحيل حركات الأبطال وأعمالهم، إلى صورة حية وكأنها تحدث الآن.

إنهم إخوة يوسف يدخلون أرض مصر للمرة الثانية (بعد مجيئهم بأخيهم). وفي هذه المرة ينفذون وصية أبيهم **(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ.)**[2] وما أروع تصوير السياق لحركة دخولهم على مصر **(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم..)** ((أي من الأبواب المتفرقة ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد))[3]. إنها صورة حية، فإخوة يوسف،أحد عشر رجلا، جاءوا إلى مصر بقافلتهم ليكتالوا... فلنتصور توزعهم على أبواب المدينة، ودخولهم إليها من أبواب متفرقة، ثم اجتماعهم فيما بعد داخل المدينة قبل الدخول على عزيزها (يوسف)، وما في ذلك المشهد من تلاحم وانسجام، وإثارة وتشويق...

ثم ينتقل السياق الى تصوير حركة دخولهم على يوسف وفي هذه المرة بصورة جماعية **(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا**

---

[1]- سورة يوسف، الآيات: 69 إلى 76.

[2]- سورة يوسف، الآية: 67.

[3]- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المرجع السابق، ج 3، ص 41.

كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] والدخول في هذه المرة الى منزله ومحل حكمه، وهذا الدخول غير الدخول السابق ،فان المراد به دخـــول المدينة[2]

و يتركنا السياق نتصور حركة الدخول وما يتبعها ويعجل بضم يوسف لأخيه في المأوى واطلاعه أنه أخوه ... يعجل السياق بهذا، بينما الطبيعي والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف. ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه[3] ويركز التصوير على حركة إيواء يوسف، لأخيه (**آوى إليه أخاه**) ((قال الحسن: ضمه إليه وأنزله معه))[4] وأخبره بأنه هو يوسف، وقال له: (**لا تبتئس**) أي: ((لا تحزن ولا تيأس))[5]

ويذكر ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) أن: ((بنيامين (شقيق يوسف) لما علم أن يوسف أخوه قال: لا أفارقك. قال يوسف: أخاف غم أبوينا ولا يمكنني حبسك إلا بعد أن أشهرك بأمر فضيع، قال: افعل.قال: فاني أجعل الصواع في رحلك ثم أنادي عليك بالسرقة لآخذك منهم. قال: افعل.))[6]

ونحن بذلك كله، نتصور كيف استطاع يوسف، أن يختلي بأخيه، بصورة أو بأخرى ـــ وقد نقل المفسرون كثيرا من الروايات، عن التوراة. ولكن لا نرى حاجة

---

[1]– سورة يوسف، الآية: 69.

[2]– ينظر: أحمد الصاوي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، دار الجيل، بيروت، ج2، ص 235، الزركشي، التبيان في إعراب القرآن، دار الجيل، بيروت، 1987م، ط2، ج2، ص 738.

[3]– ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2018.

[4]– الطوسي، المصدرالسابق، ج 6، ص 168.

[5]– جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، بيروت، ج 4، ص 26.

[6]– ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1995م، ط6، ج 1، ص 150.

لذكرها. فالمهم أن السياق تركنا، نتصور يوسف يختلي بأخيه، ويعلمه بكل شيء، ويهيئه نفسيا للحيلة التي يستعملها لأخذه من إخوته، فقد صور لنا السياق، حركة ((إيوائه إليه وإخباره له سرا عنهم بأنه أخوه وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلاّه عما كان منهم من الإساءة إليه))[1] .

ثم ينتقل التصوير إلى الفصل الموالي، من المشهد: ﴿**فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ** ...﴾[2] لقد جاء إخوة يوسف، هذه المرة بأخيهم، ليزدادوا كيلا، وتلك الغاية من رحلتهم كلها ... ولذلك انتقل التصوير إلى هذا الفصل، ليبين لنا يوسف – عليه السلام – ومن معه من خدمه يعد لهم زادهم، ويوفي لهم الكيل ((أخبر الله تعالى أن يوسف لما جهز إخوته بجهازهم يعني الطعام الذي اشتروه ليحملوه إلى بلدهم))[3]. ويتركنا السياق نتخيل تفصيلات هذا التجهيز . من ملء للأوعية وحمل على الجمال والحمير، وربط للمتاع، وما تحمله كلمة (جهّز) من معان . ويدقق التصوير في هذه الجزيئات، حيث إنه في غمرة التجهيز (جعل السقاية في رحل أخيه)[4]. ((والسقاية والصواع واحد جعلت في وعاء طعام بنيامين))[5]. والسقاية هي ((مشربة يسقي بها، وهي الصواع، قيل كان يشرب بها الملك، ثم جعلت صاعا يكال به ...))[6].

---

[1]– ابن كثير، المصدر السابق، ج1، ص 213.

[2]– سورة يوسف، الآية: 70.

[3]– محمد بن الحسن الطوسي، المصدر السابق، ج 6، ص 169.

[4]– سورة يوسف، الآية: 70.

[5]– أبو محمد البغوي الشافعي، تفسير البغوي، دار المعرفة، بيروت، 1995م، ج 2، ص 439.

[6]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 267. وذكر في حاشية الصاوي، ج 2، ص 235.

والسياق أمتعنا بهذه الحركة، حركة دس السقاية في وعاء شقيق يوسف، والإخوة غافلون عما يدبر لهم ويحاك ...، بينما يوسف وشقيقه وفتيانه على علم بذلك. ويظن الإخوة، أنهم حفظوا أخاهم، وازدادوا كيل بعير، ويتركنا السياق نتصور حالهم تلك وهم ينطلقون سالمين غانمين، في رحلتهم الطويلة تجاه أرض الشام، حيث إنهم ((ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا مترلا، وقيل خرجوا من العمارة))[1]. وبينما هم في غمرة الفرحة والغبطة، إذ بمناد ينادي من ورائهم (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون)[2].

((أي نادى مناد قائلا: (أيتها العير)... والعير الإبل المرحولة المركوبة، (إنكم لسارقون)إن حالكم حال السارقين كون الصواع صار لديكم ...))[3] . فقد أرسل إليهم المنادي ((بعد انفصالهم عن مجلس يوسف))[4].

فما أروع هذا المشهد ... لقد أمهلهم يوسف حتى انطلقوا في سيرهم، وخرجوا من العمارة ((ليكون ذلك أبعد للتهمة، وأبلغ في الحيلة))[5]. ((ثم بعث في خلفهم من استوقفهم وحبسهم))[6]. ونتصور حالة ذلك المنادي وهو يتجه نحوهم مسرعا ينادي

---

[1]– أبو محمد البغوي الشافعي، المصدر السابق، ج 2، ص 439.

[2]– سورة يوسف، الآية: 70.

[3]– محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المرجع السابق، ج 3، ص 42.

[4]– جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، ص 244.

[5]– ابن الكثير، المصدر السابق، ج 1، ص 213.

[6]– أبو محمد البغوي الشافعي، المصدر السابق، ج 2، ص 439.

بأعلى صوته (أيتها العير إنكم لسارقون ..) فما أروعه من مشهد حي، يعرض بقوة كأنه الآن ...

فما يكون حال إخوة يوسف، بعد أن نغّص عليهم هذا المنادي نشوتهم؟ ((ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذي يتهمهم بالسرقة – وهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – فيعودون أدراجهم يتبينون الأمر المريب))[1].

والمشهد إلى غاية هذه اللحظة ((مثير حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت كأشد ما تكون المشاهد حيوية وحركة وانفعالا، غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآني هذا العرض الحي الأخاذ))[2].

ثم ينتقل السياق إلى عرض الحوار الذي دار بين يوسف وفتيانه من جهة، وإخوته من جهة أخرى . فالطرف الأول من موقف ادعاء، والطرف الثاني في موقف اتهام ينفي التهمة عنه . وينتهي الأمر باتفاق بينهما وهو: أن تفتش القافلة، ومن وجدت السقاية في رحله يكون جزاء لها . أي ((جزاء السرقة للصواع . أخذ من وجد في رحله))[3]. وينتقل السياق ليصور لنا فصلا آخر من هذا المشهد، المليء بالحركة والحياة .... لقد اتفق الجميع على ضرورة تفتيش القافلة (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه)[4].

---

[1]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2019.

[2]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2019.

[3]– محمد الشوكاني، المرجع السابق، ج 3، ص 43.

[4]– سورة يوسف، الآية: 76.

فلنتصور جميعا حركة التفتيش هذه ... إن القافلة مجهزة، وانطلقت في سيرها، وإذا بها توقف وتحتجز ومن ثم ينقض غزلها من بعد قوة أنكاثا، فتنزل الأكياس من ظهور الجمال ويحلّ رباطها وعاء بعد آخر، (ويظهر من خلال السياق أن عدد الأوعية بعدد إخوة يوسف الأحد عشر)، ثم يفتش كل وعاء بدقة ... ومن حصافة يوسف ((أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش))[1]. حيث ((بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين لنفي التهمة، حتى بلغ وعاءه فقال ما أظن هذا أخذ شيئا فقالوا والله ما نتركه حتى ننظر في رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا...))[2]. والتعبير القرآني صرح بتفتيش أوعية الإخوة، و((لم يصرح بتفتيش وعاء أخيه حتى يعيد ذكره مضمرا، فأظهره ليكون ذلك تنبيها على المحذوف، فتقديره ثم فتش وعاء أخيه...))[3].

ومع هذا المشهد الحي (مشهد التفتيش)نتصور أحاسيس ومشاعر الأبطال ... إن يوسف وفتيانه يدركون بأن هذه العملية مسرحية تمثيلية على إخوة يوسف يراد بها توريط شقيق يوسف أمامهم لتبرير بقائه، بينما إخوته يتابعون ذلك المشهد بسذاجة تامة، ولا يعلمون ما يحاك لهم . وتنتهي عملية التفتيش هذه بـــ (ثم استخرجها من

---

[1]– سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2020.

[2]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 268.

[3]– عبد الله بن الحسين العكبري، التبيان في إعراب القرآن، دار الجيل، بيروت، 1987م، ط 2، ج 2، ص 70.

وعاء أخيه)[1] . ونتصور حركة استخراج الصواع من وعاء أخيه، بعد أن أفرغت كل الأوعية وفتشت . إنه لمشهد حي مليء بالحركة والإثارة ...

فما يكون موقف إخوة يوسف، الذين مثلت عليهم المسرحية ؟ ((فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء ..))[2]. ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم الحالفين المتحدين، فلا يذكر شيئا عن هذا؛ بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التي تكمل رسم المشهد بانفعاله ...[3]

ثم ينتقل السياق إلى التعقيب على هذه الحيلة التي استعملها يوسف، حتى لا تكون مثار تساؤل ليؤكد الله تعالى: (كذلك كدنا ليوسف)[4] (يعني علمناه إياه، وأوحينا به إليه)[5]

وبعد هذا التعقيب، ينتقل إلى تصوير حالة إخوة يوسف، (وهم على وقع الصدمة) يبرؤون أنفسهم، ويلحقون التهمة بيوسف وشقيقه .. ثم يترجون يوسف بأن يعفو عن أخيهم أو يأخذ أحدهم مكانه .

---

[1]– سورة يوسف، الآية: 76.

[2]– أبو محمد البغوي الشافعي، المصدر السابق، ج 2، ص 440.

[3]– ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2020.

[4]– سورة يوسف، الآية: 76.

[5]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 268.

وبعد ذلك ينتقل إلى تصوير فصل حي آخر – مع قصره – يظهر حركة إخوة يوسف وهم يغادرون مصر يائسين (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا)[1] . وقوة الحركة تظهر في: (خلصوا نجيا). لقد أعطت هاتان الكلمتان، صورة حية مليئة بالحركة والحياة تبين حال إخوة يوسف ؛ الجسدية والنفسية، وهم يغادرون مصر بائسين . لقد (خلصوا) أي: ((اعتزلوا وانفردوا عن الناس، خالصين لا يخالطهم سواهم))[2] . (نجيّا) (جعل النجي للجماعة)[3] أي في ((صورة التناجي ... وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم))[4] . فقد ((خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم))[5]. ((وهذا من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة لأن بقولهم (خلصوا) دل على ... معنى الكلام الطويل))[6] .

لقد كان مشهدا رائعا، صور حالتهم، وهم ينسحبون من مجلس يوسف بائسين ... يفكرون في موقفهم المحرج أمام أبيهم .

4: المشهد الختامي

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ

---

[1]– سورة يوسف، الآية: 80.

[2]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 269.

[3]– الأخفش، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط1، ص 593.

[4]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 269.

[5]– أبو محمد البغوي الشافعي، المصدر السابق، ج 2، ص 44 .

[6]– محمد بن الحسن الطوسي، المصدر السابق، ج 6، ص 178.

مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[1] .

لقد جاء هذا المشهد متوّجا لكل المشاهد السابقة في قصة يوسف وكان ملخّصا لها، وقد حلّ تلك العقدة الفنية التي طرحت في بداية القصة، واستمرت خيوطها تتفكّك خيطا بعد آخر إلى أن حلّت نهائيا في هذا المشهد .

وهذا المشهد تبرز فيه ظاهرة التصوير بقوة، من خلال قوة عرض الأحداث، ومن خلال تصوير المشاعر والأحاسيس أيضا. لقد أشعرنا السياق في المشاهد السابقة، أن الإخوة قد تعرفوا على يوسف، وطلب منهم بأن يأتوه بابيه – بعد ارتداد بصره – وبأهلهم أجمعين وقد حصل ذلك؛ حيث عادوا إلى بلدهم ونفذّوا ما أوصاهم به يوسف ... ويترك السياق للمتلقي تصوّر حالهم، وهم راحلون من الشام إلى مصر في صورة جماعية، لم يتركوا وراءهم أحدا. ويسلط الأضواء على حركة دخولهم إلى مصر (فلما دخلوا على يوسف)[2]. فـ ((ها نحن أولاء نرى يعقوب وبنيه في مصر بعد أن كانوا منذ لحظة معنا في أرض كنعان))[3]. ويتركنا نتصور قبيلة بأكملها – برحالها

---

[1]– سورة يوسف، الآيات: 99، 10، 101.

[2]– سورة يوسف، الآية: 99.

[3]– عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الكتاب، بيروت، ص 486.

ونسائها ومتاعها – قادمة من البدو تدخل إلى مصر وهي في أوج الحضارة آنذاك ((قيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة ...))[1] . وما يصحب ذلك من انبهار...

وتصوّر لنا الآيات موقف التقاء يوسف بأبويه، في حركة تمزج بين قوة العرض، وتصوير المشاعر.... (ءاوى إليه أبويه). فقد كانت هذه الحركة جسدية، حيث ((ضمهما إليه واعتنقهما))[2]. وكانت حركة ترسم المشاعر والأحاسيس.. إنه لقاء الأبوين بابنهما المحبوب بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامىء والشديد[3]

وبعد أن صور المشهد هذه الحركات الصامتة بالحركة والحياة والمشاعر والأحاسيس، يفصح لنا عن قول يوسف لأهله: (و قال ادخلوا مصر إن شاء الله ءامنين)[4] والفرق بين دخولهم الأول، وطلب يوسف لهم بالدخول، هو أن الأول دخول حسي، وأما الثاني فهو دخول معنوي ((قيل إنه أراد بالدخول الأول دخولهم، وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها، أي ادخلوا مصر مستوطنين فيها))[5] .

---

[1]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 275.

[2]– محمود الزمخشري، المصدر السابق، ج 2، ص 275.

[3]– ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2029.

[4]– سورة يوسف، الآية: 99.

[5]– علي بن محمد الخازن، مختصر تفسير الخازن(اختصار محمد علي قطب)، دار المسيرة، بيروت، 1987 م، ط1، ج 2، ص 653.

ثم يعود السياق لتسليط الضوء على حركة أخرى تنبض بالحيوية والتجسيد. (ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجدا)[1] ونكاد نرى يوسف وهو يرفع أبويه على العرش تكريما لهما ((يعني على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف، والرفع النقل إلى العلو))[2] .

ونكاد نرى الجميع في حالة سجود تكريما ليوسف – عليه السلام – ((والخرور في اللغة المقيد بالسجود لا يكون إلا بوضع الوجه على الأرض))[3]. وهذا النوع من السجود هو سجود تكريم وليس سجود عبادة . فقد سجد الملائكة (سجود سلام وتحية وتشريف لآدم وإكراما له بذلك، كسجود يعقوب لابنه يوسف– عليهما السلام–)[4] فالتصوير في هذا الجزء من المشهد الختامي كان قويا، وكأنما نحن نشهده الآن، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان .

ثم يروي السياق كلام يوسف، لذلك الجمع الذي خرّ له ساجدا في شكل خطاب رسمي ـــ والخطاب كان موجها لأبيه، لكنه عني به الجميع ـــ ذكر فيه بأن هذا المشهد هو تأويل لرأياه السابقة، ثم ذكرهم بأهم المراحل التي مر بها، وكانت محطات

---

[1]– سورة يوسف، الآية: 100.

[2]– علي بن محمد الخازن، المصدر السابق، ج 4، ص 653، وذكره، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تفسير عبد الرزاق، دار المعرفة، بيروت، 1991م، ط1، ج 1، ص 285.

[3]– محمد الشوكاني، المرجع السابق، ج 3، ص 56.

[4]– ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجيل، بيروت، ج 5، ص 78.

ضرورية لتحقق الرؤيا. وفي خضم ذلك الخطاب ليعقوب وبنيه، يحوّل السياق وجهة كلام يوسف فينتقل مباشرة إلى الدعاء (رب قد ءاتيتني من الملك ....)[1] .

وقد أجرى سيد قطب رحمه الله تحليلا أدبيا أبرز فيه التصوير، على مشهد مماثل لهذا الذي بين أيدينا – وهو مشهد إبراهيم إذ يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل – وسنحاول إسقاط بعض فصول ذلك التحليل على هذا المشهد الختامي .

هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء، هي التي أحيت المشهد وردته حاضرا . فالخبر: (وقال يا أبت هذا تأويل رءياي من قبل ...)[2] .، والدعاء: (رب قد ءاتيتني من الملك)[3] .

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز . وكم كانت الصورة تنقص لو قيل: قال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ... وقال رب قد ءاتيتني من الملك .... إنهما في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة . وهذا هو الفارق الكبير .... إن الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة .... وذلك هو الإعجاز[4] .

وهكذا يكون هذا المشهد الختامي من أكثر المشاهد تصويرا، فهو ((مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع ! ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع

---

[1]– سورة يوسف، الآية: 101.

[2]– سورة يوسف، الآية: 100.

[3]– سورة يوسف، الآية: 101.

[4]– ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 57.

القصة، ذلك في ضمير الغيب، وهذا في واقع الحياة ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه))[1].

إن مشاهد القصة حافلة بظاهرة التصوير، وقد اكتفينا بهذه المشاهد الأربع كنماذج حية تقاس عليها باقي المشاهد، في إظهار هذه الظاهرة الفنية، التي تعد الوسيلة المفضلة للتعبير القرآني.

[1]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 4، ص 2029 .